٢٠٠٥/١٢/٢٩

أمهات لبنانيات في مرآة الذات

فادية حطيط

ماذا لو تكلمت النساء؟

أعرف أن هناك من سيعترض على هذا السؤال باعتبار ان الحكي موروث نسائي. ولكن الفارق كبير بين أن تحكي المرأة وأن تتكلم. لا يكفي الحكي للخروج من الصمت. غير أن التكلم، فيما هو صياغة، يكون أكثر قدرة على إحالة الأشياء إلى معانيها.

تحمل الحكايات معاني ليست دوماً من صنع رواتها. أما النساء اليوم فيردن أن يكن سيدات معنى. ان يتكلمن لا أن يحكين. أن يصغن تجربتهن صياغة عقلية، وأن يحللنها لا أن يعشنها مثلما قدمت لهن، كأمر مسلم به.

والأمومة من اكثر التجارب صعوبة على الاحتواء الذهني والتحليل. من هنا ربما كثيراً ما لجأت الامهات للحكي لا للتكلم. وكانت حكاياتهن تخفي من الوقائع أكثر مما تكشف. والكثير من توترات تلك العلاقة أختفت في طي الحكاية.

اليوم وبعد ان صارت النساء أكثر تعلماً، وأكثر امتلاكاً لأدوات التحليل وأكثر مشاركة في صوغ المعرفة، يبدو لنا من المناسب أن تقوم النساء بالتكلم عن أمومتهن بشكل واع ومدروس. لذلك بحثنا عن سيدات متكلمات. سيدات معنى. فاخترنا مجموعة سيدات مثقفات، استاذات جامعيات وباحثات، لقناعتنا بأن هذه الفئة المفكّرة في وضعها والواعية للتغيرات الحاصلة فيه تكون الأكثر قدرة على بلورة تجربتها وصياغتها، مما يساعد على التقاط المسائل الجوهرية في التغير الذي لحق بدورهن الأمومي.

الأسئلة العامة التي حملناها للباحثات كانت الآتية: هل تغير الدور الأمومي؟ هل ان علاقتكن بأبنائكن تختلف عن علاقة امهاتكن بكن؟ هل ثمة تغيير ملحوظ في تجربة الجيلين من الأمهات؟ في اي نواح؟ [١]

والإشكالية التي انطلق منها التفكير بالموضوع تمثلت بكون الأم اللبنانية اليوم تبدو لنا ما زالت قريبة من تجربة جيل الأمهات السابق، بالنظر الى بطء عملية التغير الاجتماعي. ما دفعنا

[١] اللقاء كان مع ستة أمهات ينتمين الى "تجمع الباحثات اللبنانيات" ولهن جميعاً بالغ امتناني وتقديري..

إلى افتراض عدم التمكن من رصد آلية تحول ذات منطق وثبات لدى فئة الامهات. فتوقعنا أن نجد لدى الأمهات:

- السلوك ونقيضه على درجة واحدة من الشرعية (سلطة وتراخي، احتضان وتباعد...)
- تضارب المعتقدات التي تشكل خلفية السلوك الأمومي، ما بين مصدر تراثي تقليدي ومصدر حداثي يأخذ من مكتسبات العلم والغرب وحتمية الانخراط فيه.

للإجابة على هذا الافتراض أجرينا لقاء جماعياً (استغرق حوالي ساعتين ونصف) مع ستة أستاذات جامعيات وكاتبات، قمن بالإجابة على الأسئلة المطروحة، وتشعب النقاش أحياناً في نواح متعددة (الأبوة مثلاً) كما أن إحدى الباحثات لم تطرح تجربتها وإنما قدمت رؤيتها للموضوع (لذلك صار عدد التجارب المعروضة خمسة). ومن جهتنا لم نتدخل في تغيير مجرى الكلام، كما أننا لم نحذف أياً من المداخلات، باعتبار انها كلها تجيب مباشرة او غير مباشرة على الموضوع. وتم تسجيل الأحاديث وتفريغها، ومن ثم تجميع اقوال السيدات المشاركات كل على حدة، حتى ولو ان الكلام لم يجر كله دفعه واحدة.

تجارب امومية:

اتفقت المجتمعات على وجود تغير في الدور. ولاحظت إحدى المشاركات في اللقاء وهي محللة نفسانية "أن طرح مثل هذه الأسئلة هو بحد ذاته مؤشر على تغير وقلق. ففي السابق كانت الأمومة تشكل جزءاً من لعبة متكاملة، لعبة أسرية مترابطة كلها مع بعضها البعض. اليوم هنالك وحدات منفصلة لديها الحق بالكلام والحق بالتعبير والحق بطرح أوجه التغير. ومجرد ملاحظة البرامج الاعلامية وهيمنة قضايا الزواج والطفولة والأبوة والأمومة، وميل الناس لمشاهدتها، يعني أنها تشغل الاهتمام. هذا أحد مستويات القلق الجاري الكلام عنه ومحاولة التعاطي العقلي معه. فهذه المسالة كانت تجري مع اهلنا وامهاتنا كتحصيل حاصل. ولم تعد كذلك اليوم. إنها تستدعي التوقف والتفكير والنقاش. من هنا تتزايد الاسئلة الكبيرة: هل الأمومة غريزة؟ هل هي دور؟ هل تنقل الأم الأمومة لإبنتها؟ وفي أي سياق؟ هذه أسئلة كبيرة وكثيرة والنقاشات جارية بشأنها. وانا ارى أن هذه النقاشات هي أحد أهم مستويات الوعي الثقافي المرافق حالياً للمأسسة الاجتماعية للموضوع. إن التغير يبرز على مستوى الوعي والمأسسة والميديا، وثمة الكثير مما يحتاج إلى النقاش، وهو مترافق ضمنياً مع خلخلة البنى الاجتماعية الموجودة".

١ – مروحة التغير:

إن استعراض تجارب الأمهات المشاركات في اللقاء يجعلنا نتلمس بقوة تغيراً في السلوك الأمومي، غير أن هذا التغير مثلما سنرى راوح بين تغير جذري (حالة واحدة) وبين تغير بسيط (حالة واحدة) وبين تغير متفاوت في بعض المستويات (ثلاث حالات).

أ- **النموذج الأول: الارتداد الى الأمومة**

صاحبة هذا النموذج فنانة تشكيلية واستاذة جامعية وباحثة مشاركة في قضايا مجتمعها، على صعيد المشاركة في الحياة السياسية أو التحرك النسائي. وهي تروي:

أنا أمي من جيل ومن بيئة اجتماعية ضمت العديد من النساء اللواتي اعتبرن أن تحررهن الذاتي لا يتوافق مع امومتهن، فرفضنها. أمي لم تقم بتربيتنا نحن الابناء الأربعة، ومع أني لكوني أصغر اخوتي قد نلت اهتماماً أكبر نسبياً، ولكن الشيء المؤكد هو أن امي أرادت أن لا تكون مثل امها. جدتي كانت أماً بكل معنى الكلمة وفي نفس الوقت كانت سيدة أعمال، ترمّلت باكراً في الأربعين واستلمت مسؤولية إدارة الرزق وقامت ببناء عمارة واضطلعت بتربية ابنتيها الجميلتين والمرفهتين. لم يكن من تعارض لدى جدتي بين أن تكون أماً وأن تكون امرأة أعمال. أما أمي وقد تربت برفاهية ودلال ونعمت بجمال وذكاء كبيرين، ونالت نصيباً من التعليم كان آنذاك كبيراً بالمقارنة مع جيلها (المرحلة الثانوية)، فكانت تربية الأولاد بالنسبة إليها من مسؤولية المربيات، كذلك لم يكن تدبير المنزل والطبخ في وارد اعتبارها. جدتي حملت، إلى جانب أبي (الذي كان يكبر أمي بحوالي ٢٤ سنة)، مسؤولية تربيتنا، وبالنسبة إليها كان هناك الله والاولاد.

في عمر مبكر وعيت وبوضوح أن موديل وطريقة أمي كانا خطأين، وأن جدتي كانت النموذج الصح. جدتي هي الشخص الحقيقي. لذلك عندما أنجبت ابني قررت أنني أم من دون أي شك. ورفضت أن يناديني ابني (الذي امضيت وإياه سنوات طفولته في أميركا) باسمي الشخصي كما يفعل رفاقه، قلت له نادني "ماما" أنا "امك". بالنسبة إلي لم يكن هناك أي تناقض بين أن أكون أماً وان أحقق ذاتي. لقد مارست أمومتي بشغف (avec passion) ، استمتعت وتسلّيت كثيراً في علاقتي بإبني، لم تكن أمومتي واجب (devoir) على الرغم من صعوبة أن نكون لوحدنا في أميركا، شعرت بلذة كاملة في كوني أماً أربي. لم أشعر بأي تناقض بين تحقيق ذاتي، اي أن أنتج واشتغل، وأن أكون في الوقت نفسه أماً.

لم يكن من صلة بين أمومتي وبين أمومة والدتي، لذلك لا أستطيع أن اقول ان هنالك فارقاً بيناً، الفارق هو بيني وبين جدتي لأنها هي كانت الموديل التربوي الذي اتبعته. أما الفارق بيني وبين

جدتي فتمثل في النظرة إلى الأولاد، لقد كنا بالنسبة إليها (وبالنسبة إلى أبي ايضاً) امتداداً لهم (extention) أما بالنسبة إلي فإبني لم يكن امتداداً لي. إنه شخص قائم بذاته (individu). ربما لأن ولادتي له كانت قيصرية، فتحت عيني فوجدت وكأن أحداً قد وضعه في حضني، كما لو أنه أرسل لي، شخصاً تاماً يمتلك حكمة (sagesse). هكذا شعرت وهو في الواقع لديه حكمة. أنا احترمت ابني منذ صغره، ولكنني أيضاً حافظت على سلطة معينة. كلما ناقشنا أمراً ما أقول له اعطني حجة لأوافق على ما تريد، فإذا أقنعتني حجتك وافقت وإلا فأنا التي أقرر، طالما لا زلت قاصراً .

إشارات من التجربة:

الفكرة الأولى التي ترد على الذهن من جرّاء عرض هذا النموذج هي أن فكرة التحرر النسائي والتحقق الذاتي ليست جديدة في المجتمع اللبناني، خصوصاً في الطبقات العليا منه. فإذا تذكرنا ان الأم المشاركة في اللقاء هي من مواليد أواخر الخمسينات، وأنها أصغر أخواتها، فهذا يعني أن أمها اختبرت فكرة التحرر في أربعينات القرن الماضي ما يعني أن التجربة اللبنانية في التحرر النسائي لها من التاريخ ما ينبغي أن يجعلها ناضجة ومستقرة. غير أن واقع الحال لا يشير إلى ذلك، فبعض مظاهر هذه التجربة تراجع إلى الخلف بدلا من أن يتقدم، والبعض الآخر تم محوه ربما بسبب فشله. وقد تكون نخبوية هذه التجربة الطبقية، وليس انطلاقها من معاناة نسوية هو السبب في انحصارها وعدم تمددها. فلم يتحول عدم الانجاب إلى ظاهرة، لا بل يندر أن نسمع ان امرأة قررت عدم الإنجاب من أجل إكمال مسار تحققها الذاتي (والشائع في هذه الحالة هو أن تقلل من عدد الأطفال) كما إن إرضاع الأطفال وتكريس الوقت لهم قبل دخولهم إلى المدرسة (حتى ولو ضحّت المرأة بمسارها المهني من جرّاء ذلك) هي أيضاً من الأمور التي ما زالت تلقى الكثير من التبجيل.

الفكرة الثانية التي يمكن استخلاصها هي صعوبة (أو استحالة؟) تجاوز دور الأمومة، لأنه يمثل حاجة نفسية ملحة لدى الأبناء . البنت ترفض نموذج الأم الرافضة وتلعب بالمقابل دور الأم الشديدة الالتزام بالأمومة، وتشدّد على عدم إعاقة الأمومة لتحقيق الذات وعلى جانب المتعة في العلاقة بالإبن.

ب-النموذج الثاني: الأمومة بمواجهة القلق

تجربة واحدة من أصل التجارب المعروضة ألحت على احتفاظها بالنموذج التقليدي الذي قدمته لها أمها. وهي صارت منذ وقت قريب جدة. وهي ايضاً استاذة جامعية وباحثة، تروي:

أنا اليوم وسط ٣ اجيال من الأمهات، بين امي وابنتي. أقارن بين أمومتي وأمومة كل من أمي ومن ابنتي. لقد تحملت مسؤولية ثلاث بنات في غياب زوجي (الذي يعمل في الخارج). وكنت كلما تعاملت مع بناتي يحضر في ذهني نموذج أمي. أشعر بأن أمي كانت ديمقراطية معي أكثر مما كنته مع بناتي. لم يكن أهلي يميّزون بين الصبيان والبنات. وأمي كانت لا تعرف الكثير من أموري، لذلك لم تكن تخاف. أما أنا فعندي خوف رهيب. الموروث حاضر بقوة في ذهني. تشكو بناتي أنني أتكلم عن حقوق المرأة ومعاناتها ولكني أتصرف بغير ذلك. دائما يخطر في بالي أنني إذا أردت أن أكتب شيئاً عن المرأة تأتي على ذهني فكرة "المرأة خزان الموروث"، تستيقظ لدي كثيراً هذه العبارة، كيف أعيد إنتاج هذا المفهوم؟ كيف أستطيع أن أطوّر هذه العلاقة مع بناتي؟ هناك جوانب كثيرة في هذ المسألة تخيفني. ربما لأنني قمت بتربيتهن بمفردي. كوني منتجة، وأربّي بناتي بمفردي، خلق لدى الرغبة بيني وبين نفسي أن أربيهن على أحسن وجه ممكن. أريد ان أثبت حضوري، في غياب أية حصانة. عانيت في لحظات كثيرة. تسألني ابنتي أسئلة ولم أكن أستطيع أن أعلن أنها قادرة على التصرف بطريقة معينة. أنا دائما أسعى إلى الاتقان في عملي. حينما يكون عليّ أن أشتغل، أشتغل في المساء، أكتب في الليل. لا أطلب مساعدة من أحد. أريد أن أكون ناجحة وأن لا اكون فاشلة في كوني أماً ومنتجة في آن. في ما يتعلق بالحوار مع بناتي، أرى المسألة شديدة الصعوبة، أعيش صراعاً كبيراً. الموروث يحركني، مع أن بناتي قطعن شوطاً كبيراً في التقدم عني. أنا أمومتي كانت إلى حد ما عشوائية، لم تكن بنتيجة قرار واع. في حين ان ابنتي بعد أن تزوجت وحملت عبرت عن نفسها بشكل مختلف، خططت لانجابها وتحضرت له جيداً . ابنتي في حالة مستقرة عاطفياً. أنا كنت متقنة بأمومي، أريد أن أكون متممة كل واجباتي. أما هي فتعاملت مع أمومتها بحب أكثر من كونها واجباً. فهل ابنتي اكثر تطوراً مني؟ هل هي منسجمة مع طفلها أكثر مني؟ تتهمني بناتي بأنني في نواح كثيرة أكون اشبه امي.

اريد أن أتكلم عن أمر آخر عندما تكبر البنات ويتركن البيت.أنا دفعة واحدة كبرت بناتي وتركن البيت. ابنتي تزوجت والاثنتان تدرسان في الخارج. فجأة شعرت بنفسي أنني غير مؤهلة. كنت مسؤولة ومرجعاً مباشراً. علاقتي بابنتي الكبيرة كانت مضطربة، كنت صغيرة حين أنجبتها، أما مع ابنتي الأخريين فكنت أكثر نضوجاً. شعرت معهما أنني أم بشكل عميق، واليوم وهما بعيدتان عني أشعر بأن مساحتي تضيق. أنا أتساءل ما هي الأمومة؟ هل الأمومة هي مسؤولية طبخ وإشراف وغسيل أم هي مسؤولية معنوية؟ حتى الطبخ ما عدت أقوم به. تخبرني بناتي بما يقمن به، ولكنهما تخبراني ذلك بعد أن تعيشان التجربة وليس قبل ذلك. تعيشان أشياء كثيرة دون أن أعرف

بها. أشعر بالقهر من جراء ذلك. ربما أنا أنانية، ربما أنا كنت قد رسمت لنفسي أن أبقى أماً كل الحياة.

إشارات من التجربة:

غياب الزوج لعب اثراً كبيراً في التمسك بالتقليد. فالمرأة التي تربي أولادها، وخصوصاً البنات منهم، تشعر بأنها تتحمل مسؤولية كبيرة وأنها عرضة للحساب من قبل الزوج وأهله ومن قبل المجتمع عموماً. إن تربيتها لأطفالها تصبح مقيدة بهذه النظرة الخائفة وتتحكم فيها الرغبة بالاتقان. وفي وضع الأم المشاركة في عينتنا نلاحظ أنها حين احتاجت إلى مرجعية في تربية بناتها وجدتها في النموذج الذي تعرفه اي نموذج امها. هذا يعني أن القيام بالتغيير يحتاج إلى الشعور بالثقة، والثقة لا تأتي بغير سند، والسند يأتي من مرجعية معينة. والملاحظ أن الخوف يرد كثيرا في هذه الرواية، الخوف من الخطأ (الرغبة بالاتقان) والخوف من المجتمع (الرغبة بأن تربي على أكمل وجه).

بالمقابل إن التأكيد على مرجعية الموروث ليس أمراً هيناً في مجتمع آخذ بالتغير (ومن مؤشرات هذا التغير تعليم الأم وعملها واستقلاليتها في إدارة بيتها)، بل يمثل بذاته إشكالية، تظهر في اتهام البنات للأم بكونها تشبه امها، أي أنها تخالف ما كن يتوقعنه منها. ويشعر المتأمل في هذه الحالة أن هناك صراعاً ضمنياً تعيشه الأم بين أن تكون عصرية وبين أن تكون محافظة، لذلك يتحول الأمر إلى نوع من القلق حسمته في الظاهر تمسكاً بالموروث، ولكنها في الضمني عملت على تربية بنات مستقلات وناجحات وساعيات إلى تجاوز نموذجها نفسه.

ج-النموذج الثالث: قلق مراجعة

نستعرض تحت هذا النموذج ثلاث تجارب هن أيضاً أستاذات جامعيات وباحثات ومتفاعلات مع قضايا مجتمعهن كتابة وممارسة.

هؤلاء الامهات عبرن عن تغير الدور، ولكن ليس على قاعدة الرفض أو القبول وإنما على قاعدة المراجعة. إنهن لم يمارسن أمومتهن مثل أمهاتهن، ولكن التغير الذي طال أمومتهن كان نتيجة تغير اجتماعي عام، أدى بهن إلى مراجعة نموذج أمهاتهن أكثر منه موقف رافض للنموذج نفسه من الناحية الشخصية او الفردية.

التجربة الأولى: اعتقد أني أربي أولادي بطريقة مختلفة عن تربية أمي. أمي لم تكن ديكتاتورية ولكن النتيجة الخاصة بها أولاد أقل جدلا، أقل مماحكة. أولادي يميلون لمناقشة كل شيء كيف ولماذا. مهمتنا نحن الأهل في جيلنا أصعب. لا نستطيع القيام بأي شيء من دون تبرير ذلك ديمقراطياً. يعتقد الناس أن التربية الديمقراطية سهلة ولكني أجدها أصعب بكثير. أمي لم تكن تفسّر

الأسباب، كان عندها قواعد وعلينا أن نمشي عليها بدون أن تعرف كيف تبررها. بينما نحن لا نستطيع تبني أي قاعدة إلا بعد أن نبررها ونفذلكها. الآن النتيجة أن لدي صعوبة في كيفية انهاء النقاش مع اولادي. مع قناعتني بأنهم في نهاية المطاف يتبعون ولكن بشكل ضمني ما أراه مناسباً.

الأولاد اليوم أكثر صعوبة، طلباتهم أصعب من طلباتنا في السابق. إنهم يريدون مني ان أكون أماً وان أكون صديقة في الوقت نفسه. أعتقد اننا نحن ايضاً نلجأ إلى الطريقة التقليدية عندما نكون غاضبين، نظهر عقليتنا البدائية. أولادنا يتصرفون بطريقة مغايرة عن طريقتنا. مثلا عندما تجلب لي أمي شيئاً ما ولا أكون أريده آخذه منها ثم أرميه في الخفاء. أولادي لا يتصرفون هكذا، لا يقبلون شيئاً لا يريدونه. أشعر أن في الامر احتراماً لي أكبر، يعاملونني الند للند.

أنا أطالب اولادي بالمساعدة ولكنهم يرفضون، ويقولون لي انظري إلى رفاقنا، وكيف يتصرف أهلهم معهم، انت استثناء، أما امهات رفاقنا فيأتينهم بالأكل في غرفهم.

اولادنا يعرفون أنفسهم بطريقة أفضل اليوم. الأدوار أكثر وضوحاً. نحن جيل جديد وعشنا فترة مخاض. التغيير بيننا وبين أمهاتنا كان جذرياً. نحن وأولادنا من جيل ثقافي واحد.

التجربة الثانية: أنا أهلي كانوا ديمقراطيين ومتعلمين ومثقفين، لم يكن من مشكلة معهم. المشكلة هي في الاطار العام، في المجتمع الخارجي، التقدم السريع الذي أدى إلى تزايد الفردانية. المجتمع صار فردانياً إلى حد كبير وبشكل خاطئ. يجب أن يكون هناك فردانية ولكن ليس أنانية. أخلاق الحرب تركت أثرها، ليس فقط على الجيل الذي عاشها وإنما الجيل التالي الذي عاش عواقبها، كالفساد مثلا. وبغض النظر عن المستوى الفكري أو العائلي، هناك تغير حاصل كبير. مثلا نحن حين كان يدفع لنا أهلنا القسط المدرسي كنا نشكرهم، وكنا نشعر مع أهلنا، ولكن هذا الجيل لا يشعر بأهله. الجيل السابق كانت لديه ايديولوجية.

جيل اليوم أكثر طفولية. في مدرسة اولادي قرروا زيادة عمر دخول الأطفال إلى المدرسة. لاحظوا أن الأولاد اليوم طفوليين أكثر مما يلزم. وربما جيلنا نحن هو السبب. إنه جيل أكثر ديمقراطية واقل صدامية، ومتنازل عن سلطته، مما أثر سلبا على الأبناء بحيث صاروا أكثر اتكالية. في السابق كان الرجال يهاجرون من عمر ١٣ سنة للعمل في الخارج. أما اليوم فماذا نجد؟ ربما الأولاد أكثر تطورا من نواح معينة، ولكن بالاجمال هم أكثر اتكالية. إنها الحرب، علينا أن لا ننسى. نمط تربيتنا تأثر بالحرب، الأولاد كانوا محبوسين، وصار ميل الأهل للاحتضان أكبر.

والمرأة اليوم ما زالت تلعب دوراً موروثاً إلى حد كبير. والدليل أن الأدوار الجديدة تتعبها ولو أن هذه الأدوار تطورت فعليا لما كانت تتعب. كل الأدوار التقليدية مازالت تقوم بها، تعلمت السواقة لتوصل أولادها، تعلمت من أجل أن تعلم اولادها... إنها سوبر امرأة.

ثم إذا دخلتِ في عمق الدور الأمومي ستجدين أن الأم هي التي تمسك بأعباء التربية بشكل حاسم. للمثال اجتماعات الأهل في المدرسة، من يحضرها؟ الامهات بشكل كبير، مع أننا بدأنا نلاحظ مؤخراً وجود بعض الاباء.

ولكني اريد أن أشير إلى أن مجتمعنا في جانبه الأسري ما زال أمومياً بشكل كبير، وأن مجتمع الحريم ما زال موجوداً. مثال ذهبت مرةٍ إلى حمام للنساء ووجدت صبيان أعمارهم حوالي التاسعة مع أمهاتهم. وحتى بالمآتم تأتي الأم وهي تجر أبناءها الصبيان معها. إنها عادة مضرة. المجتمع الأمومي مضر. تعلق الصبيان بأمهاتهم ما زال كبيراً.

هناك فارق بيننا وبين أمهاتنا وهو فارق ايديولوجي يتمثل بالالتزام بقضايا المجتمع، وأن لدينا دوراً من خارج امومتنا.

التجربة الثالثة: المسألة الأساسية بالنسبة إلي هي أن أمومة أمي بدت مؤكدة كل الوقت. لم يكن لديها همّ البرهنة عليها. لم تكن قلقة. الأمومة بالنسبة إليها كانت بديهية for granted، ليس لديها حولها اي تساؤل. أما أنا فبالعكس، أحسست في كل مرحلة من مراحل حياتي أن عليّ أن أثبت شيئاً. في البداية كان عليّ أن أثبت أني لست مثل أمي. هي كانت قمعية، وتحاسبنا بشكل فظيع. كما شعرت بأنها خانتني حين جرّت أخي الذي كان قريبا كثيراً مني لكي يسألني عمن أخرج معه، فأخبرها ونلت صفعة منها. ثم بعد أن أنجبت ولديّ وذهبت إلى فرنسا لإكمال دراستي كان عليّ أن أثبت أن بوسعي أن أكون أماً وأباً في آن. لقد كان قراري أن أكون معهم لوحدي، وأعرف حاجتهم إلى أب، فكان عليّ ان أثبت أنني كفوء في هذه المهمة.

لم أكن أريد أن أشعر بالذنب تجاههم. كل الوقت أريد أن أثبت أنني ام جيدة. إنه دور متعب. أمي عاشت دورها براحة. مثلا عندما تعرفت ابنتي إلى شاب وصارت تخرج معه، كان عليّ أن أثبت أنني صادقة وأنني أطبق ما أقوله وأنني ديمقراطية وأريد الحرية. شعرت بالتحدي. لم أكن أعبر عن ذلك بالكلام، ولكني كنت أعيش في داخلي قلقاً كبيراً، كنت أريد أن يتطابق سلوكي مع ما أفكر به، وأريد أن أتجاوز ما أراه في المجتمع. عندما قررت ابنتي الزواج من شخص يعيش خارج البلد، تساءلت لماذا اتخذت مثل هذا القرار؟ هل هي تهرب مني؟ لماذا تهرب مني ما دمت أماً جيدة؟ ثم حدث لي تحد آخر، كيف أتعامل مع صهري؟ أمي كانت تتصرف مع أصهرتها بشيء من

الراحة لأن هنالك فارقاً كبيراً في العمر. بالنسبة إلي الأمر كان مختلفاً، فالعمر متقارب، وسؤالي هو كيف أتعاطى مع شخص جديد في الأسرة، لن أستطيع أن ألعب معه دور الأم، فأحسست بشيء من الحرج، كيف أكون؟ مساري دائما كان أن أثبت نفسي. حتى عندما اصبحت جدة كان عليّ أن أثبت أنني وإن كنت باحثة وأستاذة ومتعددة الاهتمامات، إلا أنه بإمكاني أن أكون جدة أيضاً. ولكني واجهت مشكلة وهي أنه لا يسعني أن أكون حاضرة بنفس القدر الذي كانت أمي فيه. عندما أنجبت ابني بقيت أمي معي لمدة شهر، أما أنا فعندما ابنتي أنجبت لم أستطع أن أقوم بذلك، وتساءلت لماذا لا يكون هناك إجازة للجدات؟ أجازة أمومة للجدة. أنا أشتغل فماذا أفعل؟ النساء يعملن والمجتمع يستفيد من أجرهن، ولكنه لا يهيء الظروف الجيدة للعمل. إذا أردت أن أختصر الفارق بيني وبين أمي أرى أنه يتمثل في أننا أكثر قلقاً.

وهناك أمر آخر هو مدى متابعة الاولاد. أمهاتنا لم يكن يتابعن أبناءهن طوال مراحل حياتهم. أنا بعد أن تخطيت الثامنة عشرة رحت أدبّر شؤوني بنفسي. بينما أنا أشعر بالمسؤولية تجاه ابنتي إلى اليوم. هناك كثير من الأمور أمي لم تكن تعرفها عن حياتي، وهي لم يكن لها رأي بزواجي أو بعملي. ابنتي ومع أنها متزوجة وتعيش في أميركا فإنني أعرف كل تفاصيل حياتها. أحمل هموم اولادي. أنا لا أدّعي أنني أعرف كل شيء، ولا أتدخل في حياتهم، ولكني أريد ان يشعروا بأنني سند، بوسعهم أن يجدونني حينما يحتاجون. أنا تعلمت أن أقوم بذلك. ليس من الضروري أن أعرف كل اسرارهم، إذا أرادوا أن يخبروني فأنا حاضرة لذلك وإذا لم يريدوا فذلك شأنهم. إنها قصة مسؤولية. إحساسي بالمسؤولية تجاه أولادي ما زال حاضراً بقوة.

أمر آخر عشته مع أولادي وهو أنهم عندما يكبرون ويتزوجون تلاحظين أن مطالبهم أحياناً تكون تقليدية. ومع أننا لم نعش معهم بشكل تقليدي، ولم نقدم لهم نموذجاً تقليدياً، وهم يعبرون عن إعجابهم باختلافنا وسعادتهم بنا، ولكني أشعر بأنه في ما يتعلق بالأشياء التي تمس نرجسية الأولاد، فإنهم يصبحون تقليديين في مطالبهم، فمثلا أكون أحياناً متوزعة في انشغالاتي، ولكن ابنتي تتطلب مني تفرغاً كاملاً لها. إنهم سعيدون بنموذجنا ولكنهم في الوقت نفسه يريدوننا تقليديين. يريدوننا مودرن وتقليديين في الوقت نفسه. وبالنسبة إليهم يجب ان تكون الأولوية لهم. إنه موقف أناني.

المشكلة برأيي هي أن حدود الأمومة لم تعد واضحة. جيلنا تداخلت عنده الأمور ببعضها البعض. دور الأم يتغير. نحن نجرّب ولكن نجد أنفسنا نرتطم بحدود فنغيّر في سلوكنا.

إشارات من التجارب:

تمثل هذه التجارب تغير السلوك الأمومي ولكن من دون القطع مع النموذج الأمومي التقليدي. لم ترفض أية واحدة من هؤلاء نموذج أمها، لا بل عبرت جميعهن عن نوع من الاعجاب المضمر بها (أمي لم تكن ديكتاتورية، أمي كانت مرتاحة في علاقتها مع اسرتها، أهلي متعلمين ومثقفين). كذلك تشترك هذه التجارب بنوع من الشعور بعدم الرضى (صعوبة التربية، عدم القدرة على القيام بالدور مثلما ينبغي...)، كما تشترك بمساحة دور أوسع (متابعة مستمرة لشؤون الأولاد، تشكيل سند...).

يحمل كلام أمهات هذا النموذج الكثير من الدلالات. ولو حاولنا استخلاص الأفكار المفاتيح في رواياتهن لوجدنا أنها تندرج ضمن سياق حداثوي واضح المعالم. هذه الأفكار هي:

تربية أكثر ديمقراطية، وضع القواعد وفذلكتها، أماً وصديقة في آن واحد، الندية مع الأولاد، جيل ثقافي واحد، تزايد الفردانية، أمهات يحملن ايديولوجية، التنازل عن السلطة، أثر الموروث، التزام بقضايا المجتمع، الشعور بالذنب، إثبات الذات، تعدد الاهتمامات، قلق. مسؤولية، تجريب.

من الصعب تصور مثل هذا الخطاب في بيئة تقليدية او محافظة. إن محور الخطاب الناتج عن التجربة الأمومية الجديدة يتمحور حول السعي **لتجربة فردية خاصة**. ولأن هذه التجربة تفتش عن خصوصيتها، نلاحظ تعبيرات مثل التجريب ووضع القواعد وتبريراتها وتحمل المسؤولية، غير ان هذا السعي يصطدم بالصعوبة والمشقة (تجربتنا اكثر صعوبة من تجربة أمهاتها) والقلق والشعور بالذنب، خصوصاً وأن الموروث ما زال حاضراً بقوة. أما التمثل الأقوى لهذا التغير المفاهيمي فيظهر في تشوش الأدوار الذي تعيشه أمهات اليوم من حيث خرق حاجز الأجيال (يتصرف اولادي معي كند للند، انا ام وصديقة في آن، نحن من جيل ثقافي واحد). فالأمهات لا يحصرن أنفسهن ضمن دورهن الأمومي (تعدد الاهتمامات) أو الاسري فقط (التزام بقضايا المجتمع العامة) وبالتالي فإن توظيفهن في هذا الدور يتضاءل عملياً (التنازل عن السلطة) ولكنه بالمقابل يتعمق مبدئياً لصالح مزيد من التفاعل الفكري أو المعنوي (لعب دور الأم والأب معاً). وبالطبع فإن كل ذلك يجري في مناخ من الديمقراطية وقيم الفردانية الآخذة في الصعود.

هذه بالإجمال تعبيرات التغير التي يمكن استخلاصها من الأدوار الأمومية الجديدة. ولكن ثمة مسألة أساسية طرحت في اللقاء واستحوذت على جزء كبير منه بشكل تلقائي وعفوي. إنها مسألة الأبوة. وكأن النساء المجتمعات أردن القول بأنه لا يمكن التكلم عن الأمومة بمعزل عن وجهها الآخر اي الأبوة.

٢- تغير الأبوة:

تفتح المحللة النفسانية المشاركة في اللقاء الباب لنقاش واسع عندما تقول: "إن القلق المتعلق بالأمومة ربطاً بالتغير الاجتماعي هو قلق كبير مع أنه لا يجري التعبير عن ذلك كثيراً. ومجرد التكلم عن الأمومة يطرح بحركة واحدة موضوع الأبوة. فالرجال في وضعية تغير اجتماعي لا يبقون جامدين في علاقتهم بأبوتهم. هنا يوجد خطر يتمثل في أن المرأة العاملة والمثقفة والواعية والقادرة على الانجاب لن تكون بحاجة سوى إلى مولّد (geniteur). الاخر لا يعود موجوداً . إن الحكي عن الأنوثة والأمومة والمرأة بهذا القدر يشير إلى أن هناك إستعادة للمرأة/ الأم الأسطورة (عشتار وإنانة). يجب أن يبقى الآخر موجوداً. وعندما نتكلم عن الأمومة علينا أن نتكلم عن الأبوة وعن الأولاد، لأنه من خارج هذا المثلث لا يمكن أن تستوي أمومتنا، بل نصبح كائنات مطلقة القدرة ".

أثار هذا الكلام حماسة جميع المشاركات للتكلم عن الأبوة، وبدا كأن الأمر قد عبر عندهن عن مخاض وتجربة. فتقول صاحبة الرواية الأولى: أنا دخلت في مثل هذه التجربة لمدة سنة تقريباً عندما كنت وابني نعيش في اميركا بمفردنا، وهو كان ما زال صغيراً جداً وعلاقته بي كانت قوية جداً. ولقد تعرضت لخضات متعددة في هذه السنة حتى فهمت أن القدرة الكلية toute puissance ثمنها غال علينا نحن الاثنين، فاستدرت ١٨٠ درجة وأخذت أدرج مساحة للأب في الخطاب discours بيننا ، وبدلا من أن نكون أنا وإياه فقط صار هناك أنا وهو وأبوه وجدته وجده، مع أنهم ليسوا حاضرين جسدياً، ولكنني ربيته كما لو كأنه مع أبيه، ماذا يقول والده، ماذا يقول جده، أي أننا لسنا لوحدنا، وهذا أدى إلى فرق شاسع.

مشاركة أخرى في الجلسة روت كيف أن زوجين صديقين لها ولزوجها مرَا بمحنة ولجآ إليهما، وعندما أخذا يسمعان كلام كل واحد بمفرده تبين لهما أن المشكلة الأساسية تكمن في أن المرأة كانت تمعن في تكسير صورة الأب لدرجة أن الأولاد ما عادوا يتمسكون بأبيهم. وتقول بأنها أنتبهت إلى هذه النقطة وغيرت في طريقة تعاملها في البيت من خلال إبراز صورة الأب.

وتستذكر مشاركة أخرى كيف أنها في طفولتها كانت أمها وهي المسؤولة عن شؤون ابنائها بالكامل تنبه الأولاد عندما يقومون بخطأ أن والدهم سوف يعاقبهم مع أنه في الواقع لم يكن يعاقبهم، أي أنها كانت تحضره، كانت تريده أن يكون أباً. وتعلق إحدى المشاركات بأن الأب الشرقي كان دوماً على هذه الحال، إنه موجود رمزياً، ولكنه في الواقع لا يدخل في تفاصيل تربية الأولاد.

ولكن هل أن الأب ما زال موجوداً على الصعيد الرمزي؟ وبأية صورة؟ تقول إحدى المشاركات "إن الضامن الوحيد لأنوثة البنت هو الأب، بشرط أن يكون مقيّماً على نحو جيد في كلام

الأم. على الأم أن تسمّيه، حتى يمكن للأبناء أن يقيموا تماهياتهم مع صورته. في السابق كانت الأمهات تقمن بمثل هذا الدور بشكل حدسي، كانت الأشياء تتم بسرية، بمعرفة حدسية لمعنى الأنوثة والذكورة. اليوم هناك خلخلة في معنى الأنوثة والأمومة، تعود إلى اضطراب موقع الأبوة. المرأة اليوم تريد أن تخرج من الاطار الرمزي للأب، قيمة الأب صارت أقل. وكل ذلك له علاقة بلعبة الديمقراطية التي طالت اليوم البنية العائلية بعد أن كانت هذه الأخيرة بالنسبة للخطاب العربي شيئاً مقدساً ونهائياً ولا يجب المس به. ونقاشنا الآن حول معنى الأمومة والأبوة يشير إلى اختراق هذه الحدود. تتغير الأدوار التقليدية اليوم، ليس في العالم العربي وإنما في العالم ايضاً. هناك احصاءات تشير إلى أن هناك نسبة كبيرة في اوروبا من الرجال العاجزين. الرجل يحتاج إلى مساعدة من أجل تحقيق رجولته، يحتاج إلى من يسميه رجلاً. وفي العالم العربي مشكلة الرجل كبيرة بسبب تغير الادوار وبروز "المرأة القوية". ولا ننس كذلك أننا في بلدان ذات أنظمة استبدادية، وهو ما ينعكس ضعفاً في صورة الرجل عن نفسه وفي مكانته".

٣- مفاتيح التغيير:

أبرزت النساء المشاركات في اللقاء عن تغير تجربتهن. أما مفاتيح هذا التغير كما ظهرت في أحاديث المشاركات فهي:

- الديمقراطية:

ترددت مقولة تجربة الديمقراطية على لسان أكثر من مشاركة. وكأنهن بذلك يردن أن يقلن أن الأمومة هي وظيفة تجري في حقل سياسي/ اجتماعي/ إيديولوجي وليست منعزلة. والديمقراطية كمسار سياسي تنعكس على مجمل مؤسسات المجتمع، والأسرة من ضمنها. لذلك فإن الأهل يجدون أنفسهم مجبرين على الخضوع لمنطق عدم فرض السيطرة، مما يخلق التباساً في الممارسة الأسرية (النتيجة أني لا أعرف كيف أنهي نقاشاً مع اولادي).

ولكن يبدو أن الديمقراطية هي نزوع معشش في أذهان المواطنين المثقفين أكثر مما هي واقع ملموس. إذ لا تتأخر الأمهات المشاركات عن اتهام الأنظمة العربية بالاستبدادية وبأنها تؤدي إلى زعزعة البنى النفسية، خصوصاً الذكورية منها، لجهة توليد شعور بالعجز لدى الآباء. ويبدو ان تجربة الديمقراطية في لبنان ضمن الحدود التي تجري فيها، ومهما كان النقاش حول تطورها ورسوخها، استطاعت أن تؤسس لتغير في السلوك الاجتماعي واضح وجلي من خلال مداخلات السيدات المشاركات.

- الفردانية واثبات الذات:

إن خطاب النساء المشاركات ينم عن ذوات فردية متقدمة في التجربة وفي الوعي (نحن جيل جديد وعشنا فترة مخاض. التغيير بيننا وبين أمهاتنا كان جذرياً) وتشكل الامومة بالنسبة لهؤلاء أحد مصادر هذه التجربة ومجالاً لتأكيد الذات. إنها تجربة ذات غنى وإثراء على صعيد تنمية شخصيتهن (لقد مارست أمومتي بشغف، استمتعت وتسلّيت كثيراً في علاقتي بإبني، لم تكن أمومتي واجب) ومع أن القلق ظهر جليا في كل التجارب المعروضة حول مدى تقييم نجاح تجربتهن، إلا ان الجميع اتفق على استثمارهن الكبير والواعي في أمومتهن.

- الالتزام الايديولوجي:

تبرز فكرة الالتزام بقضايا المجتمع في العديد من التجارب (هناك فارق بيننا وبين أمهاتنا وهو فارق ايديولوجي يتمثل بالالتزام بقضايا المجتمع، وأن لدينا دوراً من خارج امومتنا). ومع أن الأمومة كانت مصدراً هاماً من مصادر تأكيد ذاتهن، إلا أن جميع المشاركات عبرن عن نزوع يتخطى دورهن الامومي ناحية فعالية اجتماعية أوسع. لا بل ثمة اعتراض ضمني على تطلب الأولاد في الوقت الذي تبدو الامهات غير قادرات على تلبية مثل هذا التطلب نظراً لارتباطاتهن الأخرى. والملاحظ أن الانخراط الاجتماعي لدى هؤلاء الأمهات كان هو بذاته مرجعاً لممارستهن الأمومية (السفر مع الأولاد من أجل استكمال الأم لتجربة التعلم أو العمل، متابعة دائمة لشؤون الأولاد، مطالبة الأولاد بمشاركة أكبر في شؤون البيت...)

- اضطراب الأدوار:

تعبّر النساء عن اضطراب الدور (المشكلة برأيي هي أن حدود الأمومة لم تعد واضحة. دور الأم يتغير. نحن نجرّب ولكن نجد أنفسنا نرتطم بحدود فنغيّر في سلوكنا) وهن يقمن مراجعة دائمة للذات. هل ربيت كما ينبغي؟ إنه سؤال مقلق وينم عن عدم التأكد من صوابية الدور في غياب نموذج مقبول نهائياً ("أريد أن أثبت أني أم ناجحة". "أريد أن أكون ناجحة وأن لا اكون فاشلة في كوني أماً ومنتجة في آن"). وتعبر استجابات الأولاد المنقولة على ألسنة أمهاتهن عن هذا الاضطراب (اولادي يريدوني تقليدية وحديثة في آن. يعترض اولادي ويطالبوني بأن أكون مثل أمهات رفاقهم. كيف أتعامل مع صهري؟ كيف أتعاطى مع شخص جديد في الأسرة لن أستطيع أن ألعب معه دور الأم؟)

ليس من قاعدة متينة تستند إليها هؤلاء الأمهات، الأم التقليدية لا تشكل نموذجاً مقبولاً أو كافياً، ولا يستطعن أن يقمن بمثل دور الأمهات التقليديات بسبب التزاماتهن خارج اسرهن (لا استطيع أن أبقى مع ابنتي حين تنجب، لا وجود لإجازة للجدات) لا بل يرفضن القيام به ويستنكرنه (

"ما زال مجتمعنا أمومياً إلى حد كبير، مجتمع حريم، الأم سوبر امرأة"). ولا شك بأن هذا التغير يخلق لدى الأمهات حالة قلق وخوف وصراع (" في ما يتعلق بالحوار مع بناتي، أرى المسألة شديدة الصعوبة، أعيش صراعاً كبيراً ". " كنت أعيش في داخلي قلقاً كبيراً، كنت أريد أن يتطابق سلوكي مع ما أفكر به، وأريد أن أتجاوز ما أراه في المجتمع". "أنا عندي خوف رهيب. الموروث حاضر بقوة في ذهني. كيف أستطيع أن أطوّر هذه العلاقة مع بناتي؟ هناك جوانب كثيرة في هذ المسألة تخيفني.عانيت في لحظات كثيرة").

- سلطة الأمومة:

إذا كان اضطراب الدور من المشكلات الكبيرة التي تم التعبير عنها، إلا أن سلطة الأمومة كانت بذاتها موضوعاً إشكالياً كبيراً. ولقد طرحته الباحثات المشاركات من زاوية دور الأب وسلطته. وطرح غياب الأب رمزياً (بسبب ضعف الدور) وفعلياً(بسبب السفر) كإشكالية كبيرة، إذ أجمعت المشاركات على الآثار السلبية لهذا الغياب واعترفن بالحاجة الماسة إلى دور أبوي مستقر ومشارك في تربية الأولاد. المطلوب دور أبوي فعَال ، وليس من داع لأن يأخذ الصور البدائية للأب السلطوي والمتفوق، لأن أهميته كبيرة في سيرورة الاستقلالية لدى الأبناء[٢]. فإذا كان النموذج الأمومي التقليدي لم يعد مناسباً للاعتماد عليه في الاسرة الحديثة، وإذا كان النموذج الأبوي لا يشكل داعماً يخفف من آثار الاضطراب الناجم عن التغير، فإننا نفهم مصدر القلق الكبير الذي تم التعبير عنه. أمهات حاضرات بقوة وبفعالية، ولكن في ظل مجتمع أبوي لا يتناسب مستوى تطوره مع تطور الدور الأمومي الحديث، وما ينجم عن ذلك من اضطراب في الأدوار الأسرية عموما.

أما مسؤولية هذا الاضطراب في ممارسة السلطة فتقع، حسب النساء المشاركات، على النظام الاجتماعي السائد. ثمة مسافة ما بين الوعي الفردي والوعي الاجتماعي. وتبدو النساء الأمهات كحاملات لمشروع تغييري في حالة صدام مع مجتمع تقليدي أبوي. ويبدو الآباء كورثة سلطة لا يعترفون بضمورها ولا يعملون على خلق سلوك متلائم مع هذا الضمور. "فالثقافة الأبوية التقليدية بأنظمتها الخاصة بالحماية والقسر والشهامة والطاعة لهي سلسلة أوضاع لم تعد قائمة. إن الأبوية التقليدية بشكلها المحض لا يمكن أن تحيا في العالم الحديث، ليس لأنها "تقليدية"، بل لأنها لم تعد كذلك"[٣]. دور أمومي متغير بالفعل وبالقوة، ودور أبوي متغير بالقوة وليس بالفعل. ثمة تفاوت في وتيرة التغير ما بين الدورين ينعكس في ما أسمته المشاركات اضطراب الأدوار.

---

[2] Eliascheff,C;Heinich,N; Mères-Filles, une relation à trois, Paris, Albin Michel, 2002

[٣] هشام شرابي؛ النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربية، السويد، دار نلسن، ٢٠٠٠ ، ص ٩٨

هذه بالإجمال بعض النواحي التي شكلت عوامل رئيسية في تغير الدور الامومي، ولكن ما الذي ينجم عن هذا الشكل من التغير؟ ما هي محصلاته على صعيد شخصية الأبناء مثلما يمكن استقاؤها من النماذج الأمومية المشاركة.

٤- حاصل التغير: بعض سمات الجيل الجديد

طفولية الأبناء:

تلاحظ الأمهات أن هناك ميلا متزايداً لدى الأولاد للإتكالية ولتحميل الاهل مزيداً من مسؤولية تسيير حياتهم. ومع أن الأمهات أنفسهن عرفن حياة أكثر استقلالية في عمر مبكر، فإنهن يعاملن أبناءهن برعاية واهتمام ومتابعة هن أنفسهن يعترفن بأنها تتسم بالمبالغة ("أمي كانت لا تعرف الكثير من أموري، لذلك لم تكن تخاف". "ربما الأولاد أكثر تطوراً من نواح معينة، ولكن بالاجمال هم أكثر اتكالية، صار ميل الأهل للاحتضان أكبر". "هناك كثير من الأمور أمي لم تكن تعرفها عن حياتي، ابنتي ومع أنها تعيش في أميركا فإنني أعرف كل تفاصيل حياتها").

يشير هذا الأمر إلى زيادة التوظيف في الدور الأمومي، وتبدو الأمهات وكأنهن لا يردن الاستقلال عن أولادهن ("شعرت معهما أنني أم بشكل عميق، واليوم وهما بعيدتان عني أشعر بأن مساحتي تضيق، ربما أنا رسمت لنفسي أن أبقى أماً كل الحياة". " مجتمعنا ما زال أمومياً بشكل كبير").

والملاحظ في تجربة نساء العينة، أنهن، في ما عدا الحالة الأولى، لم يلجأن بشكل حاد إلى القطع مع تجربة امهاتهن. إن أمهات العينة شديدات التوظيف في تربية أولادهن، وهن أيضاً بنات لأمهات شديدات التوظيف في اولادهن، الفارق ما بين هذين الجيلين هو كيفية عيش هذا التوظيف، لجهة قلق أكبر لدى أمهات اليوم ("إذا أردت أن أختصر الفارق بيني وبين أمي أرى أنه يتمثل في أننا أكثر قلقاً) ولجهة رغبة أكبر بإثبات الذات (مساري دائماً كان أن أثبت نفسي) ولجهة التطلع نحو الفاعلية الاجتماعية (" لم أشعر بأي تناقض بين تحقيق ذاتي، اي أن أنتج واشتغل، وأن أكون في الوقت نفسه أماً". " كوني منتجة، وأربّي بناتي بمفردي، خلق لدى الرغبة بيني وبين نفسي أن أربيهن على أحسن وجه ممكن. أريد ان أثبت حضوري"). في الجيل السابق كانت الأمومة شأناً شخصياً يعاش على صعيد الداخل ويتمحور المردود المنتظر منه على رعاية الإبناء لاحقاً لوالديهم وخصوصاً رعاية الأم/المعطاء والحنون. في التجربة الجديدة بدأت الأمومة تتحول إلى فعل اجتماعي عام مؤثر وله مردود على صعيد الطموح والقدرة على إثبات الذات، والهدف المنتظر من الدور الأمومي تخطى طلب الرعاية من الأولاد إلى طلب استحقاق من المجتمع بأسره.

ونفهم في مثل هذا السياق، لماذا لم تعد تقنيات التربية متركزة حول "نضوج الشخصية" و"تحمل المسؤولية" مثلما كان عليه الأمر في السابق ("كان الرجل في عمر ١٣ يهاجر للعمل في الخارج") فمع شعور أقوى بالتمكن empowerment لدى الأمهات، باتت لدى الأطفال فرصة أكبر في عيش طفولة أطول.

- أنوية/ فردانية الأبناء:

تعبر الأمهات عن زيادة أنوية الأولاد. ويتجه هذا الكلام في منحيين إيجابي وسلبي. في المنحى الايجابي يبدو الأولاد كأفراد لهم مكانة وحقوق خاصة ("إبني لم يكن امتداداً لي. إنه شخص قائم بذاته (individu). شخص تام يمتلك حكمة (sagesse). أنا احترمت ابني منذ صغره". " أولادي يميلون لمناقشة كل شيء كيف ولماذا") أما في المنحى السلبي، فيستدعي هذا الأمر شكوى الأمهات ("الأولاد اليوم أكثر صعوبة، طلباتهم أصعب من طلباتنا في السابق". " يريدوننا مودرن وتقليديين في الوقت نفسه. وبالنسبة إليهم يجب ان تكون الأولوية لهم. إنه موقف أناني" . " كنا نشعر مع أهلنا، ولكن هذا الجيل لا يشعر بأهله"). إنه واقع مرتبط بما سبق الاشارة إليه من عيش تجربة الطفولة على نحو أكثر امتداداً، ولكنه من جهة أخرى مرتبط كذلك ببنية اجتماعية تتسم بالتناقض (أنا أطالب اولادي بالمساعدة ولكنهم يرفضون، ويقولون لي انظري إلى رفاقنا، وكيف يتصرف أهلهم معهم، انت استثناء). أي أن الأولاد يتعرضون لأنماط تربوية متناقضة.

ويقدم لنا هشام شرابي تحليلا يساعدنا على فهم هذه الظاهرة. فبرأيه هناك "ناحية هامة تتميّز بها كافة أنواع الأبوية المستحدثة، ألا وهي غياب التقليدية الأصيلة، وبالمقدار نفسه غياب الحداثة الحقة. ففي المجتمعات الأبوية "المحدّثة" يصعب الوقوع على فرد أو مؤسسة حديثين حقاً أو تقليديين حقاً"[٤]، أي أن الوجهتين التقليدية والحديثة تتواجدان معاً في المجتمع نفسه. الأمر الذي يردنا كذلك إلى تفاوت انعكاس التغير الاجتماعي على كل من الدورين الأمومي والأبوي من ناحية سرعة تغير الأول وبطء تغير الثاني.

مهما يكن الأمر، فإنه يمكن الاستدلال على موقع متميز للأطفال، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة، البعض ردّها إلى ظروف الحرب، والبعض إلى بقاء الأمهات مع الأولاد في غياب الأب، والبعض إلى الشعور بالمسؤولية والالتزام تجاه الأولاد. ويشكل هذا الواقع انعكاساً مباشراً لما لاحظناه من شدة توظيف في الدور الأمومي.

- عقلانية/استقلالية الأبناء:

[٤] هشام شرابي؛ المرجع السابق، ص ٦١

تكلمنا عن سمتين لنتاج السلوك الأمومي الجديد، أبناء أكثر طفولية وأكثر أنوية. ولكن المفارقة هو في ما تشير إليه أحاديث الأمهات عن أبناء أكثر عقلنة وحضوراً واستقلالية ("اولادنا يعرفون أنفسهم بطريقة أفضل اليوم. الأدوار أكثر وضوحاً". "ابني شخص لديه حكمة". " "أنا أمومتي كانت إلى حد ما عشوائية، في حين ان ابنتي بعد أن تزوجت وحملت عبرت عن نفسها بشكل مختلف، خططت لإنجابها وفكرت فيه").

وتشير مداخلات الأمهات أيضاً إلى نمط مختلف من التعامل مع الأولاد. ("أنا احترمت ابني منذ صغره، ولكنني أيضاً حافظت على سلطة معينة". " نحن لا نستطيع تبني أي قاعدة إلا بعد أن نبررها ونفذلكها". " أنا لا أدّعي أنني أعرف كل شيء، ولا أتدخل في حياتهم، ولكني أريد ان يشعروا بأنني سند، بوسعهم أن يجدونني حينما يحتاجون". " بناتي قطعن شوطاً كبيراً في التقدم عني").

هذه المداخلات تنبئنا عن تغير حاصل داخل الأسرة. لم تعد علاقات الأسرة هي نفسها كما كانت في الماضي، مثلما حللها علي زيعور في السبعينيات وبينّ فيها أن "العائلة شديدة الوطأة، مما يهيء الولد لأن يطيع في شبابه. فالكثير من وسائلنا التربوية التقليدية لا تعدّه لأن يقارع ويناقش بقدر ما تنمي فيه الالتواء والازدواجية والاعتماد على الكبير"[٥]، والتي رأى شرابي فيها أن " الأب، أي شكل النموذج الأصلي للأبوية المستحدثة، لهو أداة القمع الأساسية"[٦]. إن واقع الحال اليوم يشير إلى أن الأب لم يعد هو الشخص الوحيد المعتمد عليه، ولم يعد أداة قمع اساساً، مما أفسح في المجال لتعبيرات الأولاد بالإعلان عن نفسها[٧].

هذا يعني أن أمومة واعية ومسؤولية، ضمن حدود أسرية واضحة من حيث التمثلات الوالدية، من شأنها أن تخلص إلى إنتاج نماذج شخصية متوازنة وعقلانية. الشرط الأساسي للنجاح في الدور الأمومي (والأبوي أيضاً) أن تستوي تلك النماذج الشخصية في بنية اجتماعية قابلة للتكيف مع هذا الانتاج وقادرة على رفده بمرجعية رمزية (سياسية وإيديولوجية) ملائمة لكي ينتج وينمو.

[٥] علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٧ مذكور في شرابي، مرجع مذكور، ص ٨٧

[٦] المرجع نفسه.

[٧] وتشير مشاركة الشباب اللبنانيين في الأحداث السياسية الأخيرة إلى مدى الالتزام والوعي اللذين تجليا خلف تلك المظاهر الفردية، وبينت بطلان الانتقاد والتشكيك بالدور الشبابي الجديد